اللغة والسلطة

تأليف: نورمان فيركلو

■ تقديم: رشاد عبد القادر ■

Language and Power الكتاب/
Norman Fairclough المؤلف/
LONGMAN- London - NewYork الناشر/

مِما لا شك فيه أن اللغة باتت تشغل حيزاً له أثره العميق في الحياة الاجتماعية، وما تسعى إليه دراسةُ هذا الحيز هو تسليط الضوء على الكيفية التي تشتغل بها اللغة- سواء أكانت في حياتنا اليومية أم حياتنا المهنية- ومن ثم، يكون بمقدورنا فهم القضايا ذات الاعتبارات الاجتماعية. وهي تعمل بصفةٍ خاصة على معاينة كيف أن الأساليب التي نتواصل بها مكبلة ببنى وقوى المؤسسات الاجتماعية التي نعيش ضمنها ونقوم بوظيفتنا داخلها. كما ترمي إلى إظهار الكيفية التي يحدد بها ذاك الاستخدام اللغوي المعين، وبدرجات متفاوتة، هذه المؤسسات والأدوار التي نضطلع بها. فاللغة، كما ينظر إليها هذا الكتاب، ليست بنية مستقلة؛ مجرد نظام من الجمل، بل اللغة بوصفها خطاباً، وبكونها حدثاً؛ وعلى نحو مماثل، لا يتكّون المجتمع من فسيفساء أفرادٍ، ينظر إليه في إطار بنية متراصفة، بل بوصفه تكويناً ديناميكياً من العلاقات والممارسات التي يشكلها، إلى حد بعيد،

الصراع على السلطة؛ فأصحاب المهن، مثلاً، لا ينتظمون في نقابات فحسب، بل في مؤسسات تتشكل أعرافها أيديولوجياً عبر تلك العلاقات ويتم تمييزها من خلال تلك الخطابات المعينة.

ولهذا الكتاب إسهامه النظري في فهمنا للغة والمجتمع، إذ يستكشف بخاصةٍ الكيفية التي يترابطان بها، إلاّ أن هذا الإسهام يقوم على وصف الممارسة وتفسيرها، وبذلك يقدم شرحاً لما يحدث على أرض الواقع. فالألفة بين النظرية والممارسة ليست وليدة الصدفة؛ بل تلعب دوراً حاسماً إذا ربطنا بين الأفعال الاجتماعية التي تكون معينة وموضعية وبين المؤسسات الاجتماعية التي تحدثها. ولإنجاز هذه العملية يتحمل المؤلف/ المؤلّفة ثلاثة أعباء: يتعلق الأول باللغة وعلم اللغة (اللسانيات)، والثاني بالمجتمع وعلم الاجتماع، أما الثالث وهو أكثرها أهمية، فيتعلق بتلك المجموعات المهنية التي تشكل أفعالها الاجتماعية معطيات وحافزاً على وصفها وتفسيرها وشرحها.

ولتحقيق هذه المهمة يتبع الكتاب أسلوباً بحيث ينخرط القارئ فيما يقرؤه، أسلوباً يتحسس فيه المؤلف المشكلة (ما هو علم اللغة، ما هي الأبعاد الاجتماعية والمهنية للموضوع الذي يتناوله)، ويعرفها (كيف يمكن تسليط الضوء عليها من خلال إجرائيات التحليل النقدي للخطاب)، ويطرح حلا لها (ما الذي يمكننا القيام به بشأن القضية المطروحة بناء على التحليل الذي يكون بصدده). ومما لا جدال فيه أن الخطوة الأخيرة هي أكثرها إشكالية. فإذا تم تجاهلها سيجرد الكتاب من انخراطه في الفعل الاجتماعي ومن مبرر وجوده.

يبدأ نورمان فيركلو في كتابه بتحديد خصائص الدراسة النقدية للغة، مميزاً إياها عن تلك التوجهات التي حاولت الربط بين اللغة والمجتمع داخل علم اللغة. ثمة نقطتان أساسيتان ينبغي الإشارة إليهما في هذا الإطار، الأولى: إن اللغة ممارسة اجتماعية وليست ظاهرة خارج المجتمع ليتم، بالتالي، ربطها عرضياً بالمجتمع، والثانية: إن اللغة خطاب أكثر من كونها نصاً منجزاً، الأمر الذي يرغمنا على ألاّ نُدخل في اعتبارنا الأشياء التي تصنعها اللغة فقط؛ ذاك الناتج الذي نسمعه ونراه، بل أن نأخذ بعين الاعتبار شروط إنتاج النصوص وتفسيرها، أي باختصار: سيرورة التواصل التي لا يشكّل النص إلاّ جزءاً منها. ولهذا التشديد أهميته المركزية بالنسبة لعلم اللغة، فهو بمثابة علامة على انتقالٍ من مجرد

الوصفي إلى التفسيري، علامة على انتقالٍ لتضمين المشاركين في السيرورة اللغوية، انتقال للمصالحة بين النفسي والاجتماعي مع ما يتعلق بالنص، الأمر الذي يغير على نحو جذري خريطة الدراسة اللغوية المتعارف عليها.

وكما لعمله أهميته في مجال علم اللغة، فإنّه لا يقلّ أهمية بالنسبة لعلم الاجتماع، فـ فيركلاو يبني نظرية تظهر فيها الوشائج القائمة بين أنظمة الخطاب (بمصطلحات فوكو) وبين أنظمة المجتمع وهي تحدد بعضها بعضاً. فما أن تشرع باستكشاف الواحدة منها حتى تبدأ بشرح الأخرى. وتقوم مثل هذه السيرورة التفسيرية بشكل ملائم وعلى نحو له أثره الشديد عبر تحليل التواصل في مؤسسات اجتماعية معينة، وبذلك يتم الربط بين التحليل الكلّي للمجتمع مع التحليل الموضعي المحدد لتبادلات معينة. والآراء التي يقدمها هنا لها أهميتها الخاصة لطلبة النظرية الاجتماعية.فهي تربط الآراء التجريدية لـ بورديو وفوكو وهابرماس بحقائق الوقائع، كما تربط أعمال علماء اللغة النقديين في بريطانيا وأستراليا (فولر، كرس، مارتين وآخرين) مع النظرية الاجتماعية السائدة في أوربا.

يقدم فيركلاو لقرائه حالات على ممارسة النظرية من بداية الكتاب حتى نهايته، مختاراً نصوصاً أساسية للتحليل والاستقصاء، مقدماً بذلك تأويله وتفسيره الخاصين مما يفسح المجال للقارئ الذي له تاريخ اجتماعي متباين أن يتصدى لهما. وبكلمات مختصرة، يقدم فيركلاو عملاً متميزاً من خلال استخدام مبادئ الدراسة النقدية للغة التي يعلن عنها في مدخل كتابه.

ينبثق من هذا التحليل والاستقصاء مبدآن بارزان. يتعلّق أولهما بأولوية مواقع بحث معينة، وقد عرفها غومبرز سابقاً في ظروف واضحة المعالم. فبناء على وجهة النظر هذه، ليست مواقع البحث جميعها ذات قيمة وأهمية بارزتين متكافئتين للغويين المشتغلين في مجال النقد. وبدلاً من استنفاد التحليل على المكتشفات اللغوية (إذا استخدمنا عبارة جاكوب مي) حيث ينزع الفحوى الاجتماعي من النصوص، إذا جاز التعبير، ينبغي أن يتوجه المستكشفون والمفسرون بقدراتهم، إلى تلك النصوص التي تدلّ على لحظات حاسمة في الخطاب حيث يمكن للمشاركين فيه أن يقعوا، أثناء التواصل، تحت طائلة المخاطرة الاجتماعية، ويتحملوا جريرة ثغرات التواصل. ثمة مناسبات عديدة يبرز فيها هذا الأمر: في المقابلات الطّبية، والقانونية، والتعليمية، والرعاية الصحية، وفي حالات سوء

التواصل القائمة بين الإثنيات حيث تكون فرص الحياة على المحك، وفي حالات المهاجرين طلباً للدراسة في مجتمع أجنبي، والأطفال في المدرسة.

يتعلّق المبدأ الثاني بعملية الاختيار من تراكيب اللغة وصيغها ذاتها. تُحدد الدراسة النقدية للغة مجالات لغوية معينة بكونها تملك حداً أعلى من المعنى الكامن لفهم السيرورة الاجتماعية، مفضلة خيارات محددة من كامل نسق الخصائص الموجودة للتحليل. يلّخص الفصلان الخامس والسادس بتأن هذه الخصائص ويوضحان كيفية تطبيق مثل هذا التحليل التفسيري على النصوص المختارة. ولتمييز فيركلو بين قيم الخصائص التعبيرية للغة وخصائصها القائمة على الخبرة والعلاقات الاجتماعية، أهمية فائقة لمحلّلي الخطاب واللغويين بوجه عام، لا سيما أولئك الذين يتبعون تقاليد هاليدي. والأمر البارز هنا هو مناقشة التّناص، وعلى وجه التخصيص الكيفية التي يمكن النظر بها إلى اشتغال، إذا جاز التعبير، مفهوم الصراع الاجتماعي والصراع القائم على أساس العلاقات بين الأشخاص، في بنى الخطاب. وتُقدم لنا، في هذا الإطار، الدراسةُ الموسعة لخطاب التاتشرية نموذجاً يحتذى .

إذن، يكمن أحد الأدوار التي تضطلع بها دراسة اللغة، كما ذكرنا آنفاً، في طرح قضايا معينة في سياق الحاجة إلى التغيير الاجتماعي. ولا يفعل فيركلو هذا لكونه يعزو إلى اللغة، على نحو ساذج، أنها السبب الأساس للاضطراب والجور الحاليين أو لكونه يعتقد، ربما بشيء من الرومانتيكية، أن مزيداً من الوعي باللغة كفيل بخلق التوازن المنشود أو استرجاعه، بل يفعل هذا لأنه يؤمن بأن فهم النظام الاجتماعي يقوم، بطبيعة الحال وعلى نحو ملائم تماماً، على وعي ناقد لسلطة اللغة. ومن هنا، يتوجه الفصل التاسع إلى هذا السؤال المركزي لا سيما فيما يتعلق بتدريس اللغة في المدرسة. ثمة اهتمام في الوقت الحاضر، في دول ونُظُم تعليمية عديدة، يكتنف الحاجة إلى كفاءة صريحة معززة في امتلاك اللغة بين أطفال المدرسة من سائر الخلفيات الاجتماعية. والأمر اللافت للنظر أن الاهتمام يتركز بمعظمه حول مفهوم العجز والتقصير ويعزى مثل هذا العجز في التعلّم غير الملائم من قبل التلاميذ، إلى النص. ثمة اعتراضات بارزة على هذا التركيز وعلى العلاج الذي ينطوي عليه، ظهر بعضها داخل أستراليا؛ وما يظهره كتاب فيركلو بوضوح هو أن مثل هذا التعريف الضيق للعجز في التواصل بين التلاميذ من

حيث علاقته بالنص، أمر غير محتمل، وأنّنا بحاجة إلى الربط بين دراسة الخطاب والتعليم لفهم المجتمع المعاصر، وكيما نعد الوعي النقدي للخطاب بوصفه أساس التحرر الاجتماعي.

مع أن كتاب فيركلو له جذوره العميقة في ما دعي منذ صدوره، وعلى نحو مثير للجدل، بـ الدراسة النقدية للخطاب، فإن كتاب اللغة والسلطة برهن على أنّه قد قدم لدائرة واسعة من طلاب علم اللغة، والدراسات اللغوية والتعليم المهني، إطاراً ووسيلةً لاستكشاف التداخُلات بين اللغة والممارسات الاجتماعية المؤسسية وفيما بين هذه، إذا أخذناها سوية، والبنى الاجتماعية والسياسية الأوسع. أما الأفكار الجديدة بالنسبة لطلاب علم اللغة فتكمن في نقده لبعض الافتراضات والتراكيب التي تقوم عليها الدراسات ذات الاتجاه السائد في علم اللغة الاجتماعي، وتحليل التحاور (المحادثة) والتّداولية، كما يبين حاجة هذه الفروع العلمية الفرعية إلى الانخراط في قضايا السلطة والسيطرة الاجتماعية والسياسية بطريقة ديناميكية وذات دراية تاريخية، وبوصفها جزءاً أساسياً من سيرورة ربط المايكرو بالماكرو لإعادة التأكيد على المركز والجذر التقليديين الصارمين لهذه الفروع. وقد أثبتت صياغة فيركلو في كتابه هذا، فاعليتها وإنتاجيتها لطلاب الفروع المهنية، وطلاب الحقوق، والطب، والرعاية الصحية، والعمل الاجتماعي، وتعليم القراءة والكتابة واللغة؛ إذ قدمت للدارسين في مثل هذه الفروع- أولئك الذين تكون ممارساتهم المهنية، وعلى نحو جلي، ممارسات تقوم على اللغة –وسيلةً لوصف الكيفية التي تتم بها ممارساتهم وتفسيرها وتأويلها وبالتالي اقتراح طريقة لتوضيح الأسس الأيديولوجية لغايات المهن ذاتها ومناهجها.

لكن، على الرغم من هذا الاهتمام الخصب من قبل الجمهور المتنوع، وجزئياً بسببه، فإن مجال التحليل النقدي للخطاب وجاذبيته قد جعلتا منه، في نظر بعض المعلّقين والباحثين الذين يمارسونه، تحت طائلة التغشية النظرية. إذ يرى بعضهم أن ثمة حاجة ملحة لإعادة الانخراط في المفاهيم المركزية للسلطة والمعرفة، وقبل كل شيء الأيديولوجيا، لكي نستفهم عن هذا "العالم الواقعي" للعلاقات الاجتماعية في الممارسات المؤسسية التي يتم تمثيلها لغوياً، في حين يرى آخرون ضرورة إعادة دراسة حتمية العلاقة بين الماكرو والمايكرو، ويرى البعض الآخر الحاجة إلى توسيع مجال التركيز لا لكي يتضمن ما هو خطاب discoursed فقط، بل كي

يشمل أيضاً غير الخطاب non discoursed ، أما بالنسبة لأولئك الذين يعرفون الخطاب على أنه مقيد أساساً بتنظيم المعاني، فيعتقدون بضرورة خلق التوازن بين ما يعدونَه الدراسة النقدية الواسعة للإنتاج مع دراسة نقدية للاستهلاك على قدم المساواة. أما على الصعيد المنهجي، فبالرغم من بعض الإنجازات البارزة الحديثة للتحليل النقدي للخطاب المنطوق في محيط مكان العمل والمقابلات المهنية، هذا فضلاً عن الإنجازات الواسعة في الحقول الأكثر طواعيةً ومرونة للنصوص المكتوبة، ثمة اهتمام عملي متواصل بالإمكانية العملية للبحث اللغوي النقدي بمعناه الوصفي والتأويلي والتفسيري. هناك مقدار هائل مما يدعى بـ "التحليل النقدي" الذي ينزع النصوص (إلكترونيةً كانت أم مكتوبةً) من شروط إنتاجها وتلقيها في مواقع معينة، وهو يقوم نوعاً ما على أساس تحليل لغوي ودلالي سطحيين، الأمر الذي يؤدي إلى قفزة كبيرة أكثر مما ينبغي في تحليل الماكرو. لقد حذّر فيركلو، عن حق، من هذا. ولا ينبغي لنا التقليل من شأن ما يطرحه منهج فيرث وهاليدي الذي يرتكز على تعدد حقول البحث، من أسئلة وصفية مهمة مقترحاً بذلك، شأن فيركلو هنا، أن الخطاب ليس "مستوى" من مستويات التحليل كما هو الحال مع الفُونولوجيا، بل هو استكشاف للكيفية التي تشتغل بها "النصوص" على جميع المستويات داخل الممارسات الاجتماعية الثقافية. ومع الاعتراف بصعوبة البحث الاجتماعي القائم على الجهود المتضافرة، يكون تشديد فيركلو المتواصل على الحاجة إلى تحليل نقدي للخطاب لتأسيس منهج بحث قابل للحياة، أمراً تحذيرياً ومدروساً فيه في الآن نفسه.

وما أرمي إليه فيما تقدم، هو أن بحث فيركلو قد دشّن جادة غنية ومحددة للبحث اللغوي، كما طرح أيضاً برنامج عمل لتعليم اللغويين وممارساتهم، الأمران اللذان يتطلبان ربطاً وثيقاً بين المقدرة الوصفية، والالتزام بالقضايا الاجتماعية والاهتمامات الشخصية لأولئك الذين نقوم بعملية البحث الاجتماعي معهم، كما تتطلّب دراية بالممارسات المؤسسية في سياق نظام اجتماعي ديناميكي متصارع وتأسيسٍ على أبحاث المنظرين الاجتماعيين الذين اشتغلوا بشكل أساسي وبطرق متباينة، على إنتاج ما هو اجتماعي عبر الخطاب. تحتاج الدراسة النقدية للخطاب، بادئ ذي بدء، إلى أن تبقى على تواصلٍ مع جمهورها. وربما يكون الفعل العملي والمقنع، وقبل كل شيء، المتضافر، هو من أكثر الأشياء التي تحتاجها هذه

الدراسة؛ بحيث توسع في مجال البحث لتشمل تلك المواقع الجوهرية التي أشار إليها غومبرز، وتتعرف عن كثب على أولئك الذين ترتبط الدراسة معهم، وأن تشرع في تحليل تفسيري لإنتاج التواصل وتلقّيه القائم على الخطاب وذاك الذي لا يقوم عليه، في اللحظات الحساسة في هذه المواقع. ولا يقوم مثل هذا الفعل على نسق مبادئ مسبقة، بل هو تطبيق عملي وربط مستمر بين النظرية والممارسة في سيرورة التعرف على الذات بدون توقف. فما ينبغي لـ الدراسة النقدية للخطاب أن تفعله، هو أن تتحدى الطاقات، التقنية والمفهوماتية، للغويين ومحللي الخطاب كي تتحسس التباين والاختلاف على مستويات متعددة طالما أن الحدود بين الخطابات تتغير باستمرار مع التغير الاجتماعي؛ وفي تشديدها على شروط تلقي النصوص تُجبر السيرورات المعرفية على الانخراط في التحليل المبني اجتماعياً ونقدياً، وأن تدرك الروتين المنظّم الذي يتحكم بعملية التلقي هذه، وتتوجه إلى تاريخية الحدث الخطابي وإلى أركيولوجيا المعرفة والممارسة، وتفضل على نحو فاصل الخبرات الحياتية لأولئك الذين تتعاون معهم بوصفهم مصدراً للمعطيات وبالتالي ترمم جزئياً اختلالات التوازن المتأصلة بين أولئك الذين يقومون بعملية البحث وأولئك الذي يجرى عليهم البحث عبر دراسة ممارساتهم.

سيجد قُراء اللغة والسلطة ثيمات أخرى وجدت طريقها فيما بعد إلى كتابات فيركلاو الأخرى، كالعلاقة بين دراسة الخطاب والتغيير الاجتماعي الثقافي في اقتصاديات السوق ما بعد الصناعي، الأمر الذي تناوله في كتابه الخطاب والتغيير الاجتماعي، وكذلك الأهمية التي أسبغها دائماً على تحليل نسيج النصوص حين القيام بالبحث الاجتماعي، اللغة والسلطة، اللغة هي السلطة؛ هذه هي ثيمات كتاب فيركلاو. حاولت فيما تقدم عرض بعض مما أثاره الكتاب فحسب بعد صدوره.

* * *